

الذهبية — السالفة الذكر — التي خلقها تكالب الكاثوليك والبروتستنت على السيادة

وما هي إلا فترة من الزمن حتى توغيت اليبابات ، فأخذ الأدباء عامة ، والشعراء خاصة ، ينتحون سبلهم الوعرة في صخر السياسة الأعم بكل عناء وجهد ، إذ كان موتها كالريح الهادئة أذكت سمرتلك النار المذهبية الخامدة ، فمادت النفوس إلى شنشنتها القديمة من التخاذل والانقسام الديني . والتف الأدباء ثانية ، كل حول بطانة خاصة ، يتاصرها في الجهر والخفاء ، ويدود عنها بلسان وقلمه ، وإذ كان الدين علة هذا الانقسام وسبب تجزب هذه الأحزاب ، فقد كان نتاج الأدباء إذ ذاك ، متسا بالميزات الدينية ، والمظاهر الحزبية . وخير من نلتس هاتين الظاهرتين بوضوح وجلاء في آثاره « جون ملتون » وهو الذي سنعرض لدراسته في هذه الكلمة المعجلى

### شخصية ومبانه

لملتون شخصية فذة محاطة بستر كفيف من الغموض والابهام ، ليس من الهين علينا خرقه ؛ يدل على ذلك : تشعب الأحكام فيه ، وتباين وجهات النظر إليه ، وتناصر الآراء عليه . فبينا نرى المعجيين بسمو شخصيته ، والمفتونين بسحر شاعريته ، يوغلون في تقديسه وتبجيله ، ويوؤونه وشكسبير سناما واحد من الشهرة والعظمة ولا يرون « لفردوسه » في الشعر مثيلاً إلا بالرجوع إلى الإلياذة والأوديسة — إذ بالكثيرين من خصومه يجردونه من جميع مواهب الشاعرية السامية ، ويجهدون الفكر في تسقط سقطاته ، وتقصي هفواته ، والاحاطة بكل مامن شأنه ان ينتقص من شاعريته وينال من شخصيته . أما الفريق الأول فزعيمهم « وليم هنزلت » ، وأما الفريق الثاني فعلى رأسهم « جونسون » ؛ ولا تظهر الحقيقة بين حالي الاغراق في الإعجاب ، والتحذلق في التفرض إلا بحسمة مكبرة ، ومشوهة ملفقة ، فلا عجب إذا قلنا إن ملتون كان ولم يزل غامض الشخصية ، مكتوم الطوية . ونحن إذ نعرض له بتل هذه الكلمة المعجلى ، فلنا ندعى أن فيها فضل الخطاب الذي لا يرد ، ولا التوفيق بين مختلف هذه الأقوال التبليلة والأحكام المتشعبة ، وإنما نريد توجيه اهتمام الناقدين ، وجهود الباحثين إليه ، وعرض

## جون ملتون

### للأستاذ خليل جمعه الطوال

#### تمهيد

لقد كانت انفكتر قبل الحكم الأليزبي غارقة في بحر خضم من الحروب الدينية والتنازعات المذهبية ، وكان أدباؤها منقسمين إلى عديد البطانات السياسية المتضادة التي كانت لاقتنا تتناحر فيما بينها على اجتذاب جبل الرأي في الأمة ، ومقاليد الأمور في الحكومة ، والمراكز المحوطة في السيادة ، وصرفتهم هذه الحروب الدينية السياسية عن طبيعتهم ، واجتاحهم إلى ميادينها الدامية ، كما يجتاح السيل الأتى قطعة من الخشب ، أو قصبه من القش . فلا عجب إذا تضيفت شمس الشعر — في انفكتر — للمنيب ، ولا عجب أيضاً إذا تعطلت في الناس أخيلهم التوثية ، ومشاعرهم المشبوبة ، وسدورهم المليئة بالأحاسيس الوثابة ، والمواطف الجياشة ، إذ ليس في البيئة السياسية ثمة ما يندى هذه الأمور ، أو يشير أسبابها ويوقد جذوتها

ولما هو إلا أن اعتلت اليبابات سدة العرش ، وتسمنت عاليها وتقلدت يدها الحديدية زمام الملكة وأعتها ، حتى سارت في خطتها على البادي القويمة اللاحزبية ، فأباحت الناس على مختلف طبقاتهم وملهم الحرية المطلقة في معتقداتهم ، فحمد بذلك روح التناحر المذهبي — ولو إلى حين — وانقرض عقد هذه البطانات السياسية المتضادة ، إذ قطع التسامح الديني الذي أوجده اليبابات أسباب تضادها ، فاستيقظت مشاعر الشعراء وعواطفهم على هدوء ربح هذا التعصب المذهبي المقوت ، وأخذت أخيلهم التوثية تتحرر من أسفادها وتيودها التي كبلتها بها البيئة السياسية مدة من الزمن ليست بالقصيرة . وقد ساعد على هذه النهضة الباركة ذوق الملكة الأدي ، إذ استندت الأدباء إلى قعرها وقربت الشعراء من بلاطها ، فكان عملها هذا وتشجيعها للأدباء بمثابة التعويض العادل للأدب عما خسرت تحت وقع تلك الحروب

مختلف المقالات فيه ، تاركين - ما أمكن - للقارئ الكريم الحرية في إمارة غمها من سميتها

\*\*\*

ولد ملتون في « برودستريت » بلندن ، وكان والده كاتباً ؛ وإذ كان من أهل اليسر والرخاء فقد كان شديد الرغبة في تعليمه تعليماً جامعيّاً عالياً . ولقد كانت طفولته النادرة تنبئ بما سيكون له من المجد المخبر في جوف المستقبل ، وليس أدل على طموحه وعبقريته وتحفزه للوثوب إلى قمة المجد من تلك القطوعات الشعرية الجميلة التي نظمها وهو لا يزال بعد في ربيع صباه ، تأمها بكبرياء فتونه

كان ملتون طويل القامة ، ساهم الوجه ، شثيت الثغر ، أبلج الحاجبين ، ذا عينين نجلاوين ، أشم الأنف ، سخامي الشعر ، رجله ، مليح النهم ، معتدل الأعضاء ، وكان ( كما روى عنه ) بارع الجمال ، تمشق منظره العين ، وترتاح لحديثه النفس ، وهو - إلى جانب ذلك كله ، مزهو بنفسه معجب بخلقه ، ومعتد بذكائه ، تشهد بذلك آثاره العديدة ، وآساليه الشعرية المستعصية ؛ وما أسلوب الشاعر في قصيدته إلا صورة لطبعه ، ومرآة لأخلاقه . مكث ملتون في بيت والده في « هارتون » حتى منتصف العقد الثاني من عمره ، حيث عاش تحت كنفه عيشة مترفة رخيّة ، لا ترتق صفوها الأكدار والأحزان ، ولا تعبت بهنائها الصموم والأشجان ، فشب محباً للحرية ، وما من شيء يضع في جذوة نفسه المتوقدة ، أو يقل من شباة عزيمته المتحفزة ، وإذ ليس من شاغل يشغله بأمور عيشه ، فقد كان منصرفاً إلى افتعال الشعر والمبث به ، وإلى احتذاء أساليب أفذاذ الشعراء في القريض . وفي عام ١٦٢٤ أدخله والده مدرسة University of christ في كبريدج ، فأقبل على الدرس لا يلوى عنه إلا حين يجهد الفكر ، فنال بذلك استحسان معلميه ومدح عارفيه ، إذ برز جميع أقرانه ، واشتهر بين سائر لدائه بذكائه اللامع ، وفطنته المتوقدة . وفي عام ١٦٣٢ أنهى علومه الجامعية ونال درجة M.A السامية فنادر كبريدج راجعاً إلى بيته في هارتون ، حيث أكب على مطالعة الآداب الكلاسيكية مدة خمس سنوات تمكّن في خلالها من الاطاعة بجميع ما فيها من رائع النثر وجيد الشعر . أما اللغة الانكليزية ، فقد بلغ اطلاعها عليها حدّ الاطاعة بجميع أوابدها المستعصية . وليس أدل على ذلك من مطالعة ملحمته الشهيرة

المروفة « بالفردوس المفقود » إذ تحتاج في كل صفحة إلى الاستعانة بالعجم عشرات المرات وبعد أن قضى في هارتون خمس سنوات في الجد والمطالعة ، أخذ يطوف في أنحاء أوروبا ، ويتنقل بين مدنها العاصرة وعواصمها الزاهرة ، فتلقحت بذلك عبقريته بعناصر أدبية جديدة ، ونجّلت مواهبه عن جرائم شعرية سامية ، لطفت من عرام نفسه ، وليّنت شيئاً من حرورة طبعه ، وزادت في قيمة إنتاجه . ففي عام ١٦٣٨ ذهب إلى إيطاليا ، وكانت إذ ذاك كعبة الأدب ، ومثابة الفن ، وقبلة الشعراء والمتأدين ، يحجون إليها في كل عام ليردوا شرعة آدابها الرائعة ، وليروحووا عن أنفسهم من عنائها ، وذلك بالتمتع بسماها الصافية ، وأشجارها الباسقة ، ومناظرها المتناسقة . وقد زار من مدن إيطاليا فلورنسة ، واجتمع فيها غير مرة بأعظم علمائها وهو غاليلو ، ومنها عرج على رومة وهي العاصمة ، والمثابة العزيزة لسائر أنواع الفن ؛ ثم سار منها إلى نابولي ، وهناك قرع سمه نياً الحروب الداخلية التي شبت في انكلترا عن اصطدام حق الملوك الألهي برغبة الشعب الملحة في الحصول على حقوقهم كاملة غير منقوصة ، ولهذا فانه لم يتمّ رحلته بل رجع إلى وطنه وهو يقول : إنه لمن المزرى بالرجل أن ينشد الراجة في السفر ، بينما مواطنوه يجالدون في سبيل حريتهم

### ملتونه والسياسة

وبرجوع ملتون من رحلته بتبدي حياته السياسية ، وهي دور مليء بالجهد الجبارة والأحداث الخطيرة ؛ ولئن كان إذ ذاك مأخوذاً بترقي الشباب وتهور العاطفة إلا أنه أظهر في ميدان السياسة من الحنكة والدهاء والرونة الدبلوماسية ما لا طاقة على مثله إلا لدوى النبوغ والعبقرية . كان جبل السياسة إذ ذاك مضطرباً بين حق الملوك الألهي وبين ديمقراطية الشعب ؛ وأحياناً بين البروتستنتية للصلحة ، والكاثوليكية البالغة في المحافظة على تقاليدها - ولو بليت - وكان ملتون خصم الملكية اللدود ، وعدوّ البابوية الأزرق ، فلا عجب إذا انهال عليهما بكثير من الامتهان والزراية ، أو تسقط لها كل ما من شأنه أن يحط من جلالها أو ينال من عظمتها لقد ناهض الملكية كثيراً ، وقاومها مقاومة غمّاء الجبين ، حتى أنه لم يدع سانحة تمرّ إلا اهتلها مندداً ببيوبها ومثالبها ،

أبحاث تاريخية جديدة

## الإسلام في غرب أفريقيا

مدى انتشاره في تلك الأقاليم وبلغ أثره في أهلها

للأديب جمال الدين محمد الشيبان

تمة

ولقد حمل إليهم الإسلام أيضاً نظام الحكم الديموقراطي . ذلك أن نظام الإدارة في الإسلام نظام ديموقراطي - لا فرق بين رجال الدين وعامة الشعب - ف رئيس المقاطعة هناك هو الليمان (Limán) (ويبدو لي أنها محرفة عن لفظة الامام العربية) ويختار من بين أفراد الشعب ، وكل الصفات التي يراعيها الناس أثناء انتخابه هي أن يكون على خلق طيب وأن يكون ملماً بالقرآن إلاماً لا بأس به . ومن وظيفته أن يؤم الناس في الصلاة . وليس هناك نظام مركزي يوحد بين هؤلاء الليمان Limans ، فكل منهم مستقل في إدارته . ويزود الليمان هو والمالم Malam (وأرجح أن أصلها معلم ، فوظيفته تعليم الناس ولا بد أن يكون على علم ولو قليلاً بالقرآن) بما يقدمه الناس لهم من عطايا عن طيبة خاطر . ومهمة هؤلاء المعلمين Malams تعليم الصغار ؛ غير أن أكثر اعتمادهم في الكسب على التمام التي يقدمونها للناس . والعلمون كذلك أطباء يستخرجون الأدوية من جذوع الشجر وأوراقه . ومعظمهم طفيليون على المجتمع ، بل إن بعضهم يستخدم تلامذته لسؤال الناس . وكثير منهم ممن ذهبوا إلى مكة وحجوا البيت الحرام يتشاع تقديسهم ؛ وهم يستغلون هذه الاشاعات الخيالية طول المدة الباقية من حياتهم . ولكننا رغم هذا لا نندم أن نجد بين هؤلاء المعلمين من يحيا حياة كلها تقوى وورع وسعى لنشر العلم . وفي معظم الولايات الاسلامية تقام الصلاة كل يوم كما يحتفل المسلمون بميذى الفطر والأضحى إذ يسمونها يوم (Karamin Salla & Baban Salla) أي العيد الأصغر والعيد الأكبر

شاهراً ظلها مساومها ؛ كما ناصر الطهرين كثيراً في تقويض دعائم الكاثوليكية . والطهريون في ثورتهم على الكاثوليكية ومن ورائها الملكية ، أشبه ما يكونون في التاريخ العربي بالخوارج في ثورتهم على العلويين أولاً والأمويين ثانياً ؛ ووجه الشبه بينهما اختلاط الدين بالسياسة في مبادئهما . وما مبادئ الطهرين التي هبوا متشمرين للنضال السياسي في تحقيقتها ، إلا صورة من المبادئ الوهاية في جزيرة العرب . ولقد كانت الدعوة الطهرية في بادئ أمرها دينية محضة ، أي كدعوة الخوارج إبان خروجهم على علي ، ولكنها - كشيئها - لم تلبث أمام أرسنقراطية الملوك أن تنكرت لهم ، واصطبنت لمجالتهم بالصبغة السياسية ، فقد ناهض الطهريون الملوك متناهضة عنيفة ، وأنكروا عليهم حقهم الآلهي في السيادة والسلطة ، وانزعوا لفظه من أفواههم بعد أن كانوا يتشدقون بمحضه تشدق من عجز لقمعة دسمة . وما انتصار النظام الدستوري في انكلترا وانهيار دعائم الملكية إلا رمزاً لاتتصار المبادئ الديموقراطية على الأرسنقراطية ، بل بصورة لاتتصار الطهرين على جميع منافسهم ، ذلك الانتصار الذي أملى على ملتون ملحمة الشهيرة المعروفة بالفردوس المفقود ، وهي صورة حية لما كان عليه الدين إذ ذاك من التبلبل والإقسام ، تطلعنا على مدى ما وصل إليه الطهريون في جهادهم لتدعيم أسس حرية الشعب الديني والسياسية تلك الحرية التي أجيبت أمثال دن ، وبنيان ، وملتون

ومن كتابات ملتون السياسية رسالته المعروفة : Tenure of King and Magistrates وقد كتبها عام ١٦٤٩ دافعاً عن إعدام الملك - ذلك الإعدام الشنيع الذي صوره فيما بعد بصورة ترتد منها الفرائص وتفسر لها الأبدان في كراسته المعروفة بـ Eikon Basilike

وإذ كان ملتون ظهيراً لكمويل ومساعداً له ضد الملكية الظالمة ، فقد عينه هذا بعد تسنمه سدة الحكم بمدة وجيزة - أي عام ١٦٤٩ - ترجاناً له في قسم السكرتارية اللاتينية ، وكان عمله ترجمة جميع الدواوين والرسائل إلى اللغة اللاتينية ، إذ كانت اللاتينية إذ ذاك هي اللغة السياسية الوحيدة المتفق عليها بين جميع دول أوروبا

فليل محمد الطرزال

" يتبع "